عوامل نجاح الملك عبدالعزيز في توحيد البلاد..

د. عبدالله الصالح العثيمين

لم تكن مسيرة الملك عبد العزيز لتوحيد البلاد قصيرة سهلة؛ بل كانت طويلة شاقة في معظمها، ذلك أنها استغرقت حوالي ربع قرن من الكفاح المستمر. وعندما بدأ تلك المسيرة كانت إمكاناته المادية ضعيفة جداً، وهذا ما دفع بعض من لم يطلّعوا على تاريخ البلاد اطلاعاً كافياً إلى القول بأنه بدأ من فراغ. والواقع أن الملك عبد العزيز منذ أن خطا خطوته الأولى في مسيرته التي كللت بالنجاح كان من أبرز رفاق دربه تاريخ حكم تمتد جذوره إلى ما يزيد على قرن ونصف القرن. وكان ذلك الحكم قد قام على منهج إسلامي واضح يهدف إلى توحيد البلاد في ظل دولة تنشر العقيدة الصافية وتحميها، وتطبّق الشريعة السمحة وتذود عنها. وبصفاء العقيدة وسيادة الشريعة يعم الأمن والاطمئنان.

وإذا كان المنهج المذكور لم يتغيّر من حيث الجوهر طيلة تاريخ الحكم السعودي فإن مدى النجاح في تحقيق أهدافه اختلفت نوعاً ما وفق إمكانات الزعامات التي عملت على تحقيقها، ووفق الظروف التي واكبتها. فقد نجحت الدولة السعودية الأولى في تكوين أول دولة تضم أكثر مناطق جزيرة العرب منذ صدر الإسلام، ونجحت في نشر

عقيدة التوحيد الصافية من كل الشوائب؛ خاصة بين الحاضرة من السكان، كما نجحت في تطبيق الشريعة في مجالات الحياة المختلفة. وكان من أدلة نجاحها في هذا المجال أن ساد ربوع البلاد التي استظلت بظلها أمن لم يشهد له مثيل من قبل؛ كما هو واضح من وصف ابن بشر وغيره من المؤرخين.

وقد حرص أئمة الدولة السعودية الثانية؛ وبخاصة الإمامان تركي بن عبدالله وابنه فيصل بن تركي، على تحقيق الأهداف التي حققها قادة الدولة السعودية الأولى. لكن الظروف التي واجهتهم لم تمكنهم من الوصول إلى ما وصل إليه أسلافهم من حيث سعة الحكم وقوته، ولا شك أن البحث لا يتسع للدخول في تفصيلات أسباب القوة والضعف في الدولتين المذكورتين.

وحينما انطلق الملك عبد العزيز في مسيرته كانت تتملك لبّه دولة آبائه وأجداده التي وحدت البلاد تنشر العقيدة، وتطبّق الشريعة ليسود الأمن والاطمئنان. كان هذا هدفه الذي لم يخفه يوماً من الأيام. وكان نجاحه المشهود أعظم جائزة نالها على كفاحة الطويل.

والمتأمل في تاريخ الملك عبد العزيز يلاحظ أن عوامل نجاحه تعود في مجملها إلى أمرين : مؤهلاته القيادية، والظروف الداخلية والخارجية التي أحاطت بمسيرته.

مؤهلاته القيادية :-

كانت مؤهلات الملك عبد العزيز القياديةُ كثيرة. لكن أهمها :-

١ ـ التديّن :-

وهذا التديّن ذو مظهرين : أحدهما سلوكه الشخصي؛ إذ كان محافظاً على أداء الواجبات والسنن الدينية.

وثانيهما مناداته بالإسلام عقيدة صافية وعملاً ملتزماً. ولا شك أن التديّن عامل قوة للفرد يكسبه صفات جليلة في طليعتها الثقة بالله والتوكل عليه والعزيمة على اقتحام المخاطر، والصبر عند الشدائد. وكان لتديّن الملك عبد العزيز بمظهريه أثره البعيد في استقطاب أكثرية سكان المنطقة التي بدأ فيها تأسيس حكمه. ذلك أن سكان نجد؛

خاصة الحاضرة منهم، كانوا يكنّون مودة للدين. وكان حب الدعوة الخيّرة التي تبنتها الدولتان السعوديتان الأولى والثانية لا يزال متغلغلاً في أفئدتهم.

ولعلّ من أوضح الأدلة على تلك المودة وذلك الحب ما تضمنته أكثر قصائدهم الحماسية في مرحلة توحيد البلاد كلها من إشادة بالدين وبمن ناصروه.

٢ ـ الكرم :ـ

وكان سخاء الملك عبدالعزيز جزلاً لا تكلّف فيه. وكان من أحب الأمور إلى نفسه أن يستقبل الضيوف ويهب الهدايا، ولم يعهد عنه أنه فكر يوماً من الأيام بادخار المال والاتّجار به. وإذا كان حب الكريم والإعجاب به من طبائع البشر أينما كانوا فإن الكريم يحتلّ منزلة خاصة في نفوس العرب بالذات. وإذا كانت إشادتهم بالفروسية مما حفلت به كتب تراثهم فإن إشادتهم بالكرم لا تقلّ عنها؛ بل ربما تفوقت عليها. ولاشك أن كرم الملك عبد العزيز كان عاملاً قوياً لنيل إعجاب السكان به وانضمامهم إلى صفّه.

٣ ـ الشجاعة :ـ

وكانت شجاعة الملك عبد العزيز شجاعة المتّزن المفكّر، لا شجاعة المتهوّر غير المبالي. كان لا يتأخر عن المعارك؛ وما كان في جسده من جراح أكبر شاهد على ذلك. لكنه كان يقدم إذا رأى الإقدام ضرورياً مفيداً. على أنه أبدى من الشجاعة ما كسب به إعجاب السكان وهو لا يزال في عنفوان شبابه. وكانت معركة الرياض ثم معركة الدلم من أبرز أدلة شجاعته في تلك المرحلة. وعندما وصل إلى القصيم في مستهل عام ١٣٢٢ هـ كان برفقته فئات من النجديين في طليعتهم أهل العارض وزعماء القصيم الذين كانوا لاجئين في الكويت. وكان لا يزال فتى في العقد الثالث من عمره.

وهذا ما جعل الشاعر إبراهيم القاضي يقول في تلك المناسبة :ـ

جَاك وَادي حَنيفة يصْطِفِنْ كِلّه ∴ والْبَحَرْ جَهَزْ اللّي بِهْ وجَا مَاشي
جَوْك يَتْلُونْ مِنْ يِثْقَلْ على الجِلّه ∴ أشْقَر، مِخْلِبُه مِنْ نَاش ما عَاش
تَوّ سِنّه صِغِيرْ وبَانْ فِعْلٍ لِه ∴ قَبّ واغْوَلْ هَدِيرٍ لَه وهُو حَاش

وتتجلّى شجاعة الملك عبد العزيز المتّزنة الواعية في عدة أمور : أولها أنه أدرك منذ البداية أنه لا يخطط لمعركة واحدة تنتهي بنهايتها مسيرته سلباً أو إيجاباً؛ بل يخطط لحكم واسع مستمر. ولهذا كان يحاول ـ ما أمكنه ـ تفادي الحرب. وكان يفضّل دائماً أن يكسب الآخرين بدون حرب بدلاً من أن يحاربهم لينتصر عليهم. ولم يكن هذا الموقف ناتجاً عن رغبته في الإبقاء على أرواح من ناصروه فقط؛ بل رغبته أيضاً، في الإبقاء على أرواح من كانوا، لظروف خاصة، مع خصومه.

ذلك أنه كان يتصرّف تصرّف المدرك بأنه سيكسب هؤلاء كما كسب أنصاره الأوائل عاجلاً أو آجلاً، وأن كلاً من هؤلاء وأولئك سيصبحون شعبه المرتقب. وثانيها أن شجاعته بلغت درجة جعلته يثق بأقرب المقربين إلى خصومه ليصبحوا بعد الانتصار عليهم من حرسه الخاصين. وثالثها أنه كان لا يجد غضاضة في الاعتراف بما يتحلّى به خصومه من صفات الفروسية. من ذلك أن عبد العزيز بن رشيد ـ وهو من فرسان نجد المشهورين ـ انطلق وحده من معسكره في الشنانة، واستردّ غنمه التي كان قد أخذها حوالي عشرين فارساً من جيش الملك عبدالعزيز. وكان ابن رشيد يحدو على حصانه وهو يستردّها قائلاً :ـ

ولد الحنيش يجي حنيش .·. والعود ينبت في مكانه عود

فما ذا كان تعليق الملك عبد العزيز على ذلك ؟ لم يحتقر ابن رشيد، ولم ينكر فروسيته، وإنما قال : " ونعم ونعم لكن سعد من الله عوينه ".

٤ ـ السمات الخلقية :ـ

كان الملك عبد العزيز ذا شخصية متميزة؛ فهو طويل القامة، مشرق المحيّا، له عينان ناطقتان بالذكاء والعزم، وله صوت رخيم مملوء بالثقة والقوة. وكان إلى جانب ذلك طيب المعشر ينظر إلى محدثه ويدرسه دراسة سريعة نفّاذة، كما كان حاضر البديهة، واضح التفكير، قويّ الإقناع، ولم يقتصر الاعتراف له بذلك على السكان

المحليين؛ بل إن كثيراً من الزعماء الأجانب شهدوا له به. ومن بين هؤلاء القنصل الهولندي في جدة، الذي قال: "إن له مظهراً ملكياً، وإنه يشع جاذبية". أو المقيم البريطاني في الخليج، الذي ذكر "أن لدى الملك كثيراً من عناصر العظمة؛ فهو قوي عديم الخوف، صريح يفكر بوضوح ويعرف ما يريد وما هو حسن له" بل إن الرئيس الأمريكي روزفلت قال عنه: "إنني تعلمت من ابن سعود عن المشكلة العربية والمشكلة الإسلامية والمشكلة اليهودية في خمس دقائق أكثر مما تعلمت من خلال تبادل عشرات الرسائل". وكان انطباعه عنه أنه "نموذج رائع لملك محارب".

ولاشك أن تلك السمات كانت من عوامل تأثير الملك على الآخرين وكسبهم إلى جانبه.

٥ ـ قوة الإرادة :ـ

لم تكن حروب الملك عبدالعزيز مع خصومه كلها انتصارات. فقد انتصر في كثير من المعارك التي خاضها. لكنه تعرض لهزائم حربية مختلفة الأحجام. والحرب سجال يوم لك ويوم عليك. على أن ميزة الملك عبد العزيز أنه عرف كيف يتعامل مع الانتصار والهزيمة. فالنصر لم يدخل إلى نفسه الغرور ويصدّه عن جادة الصواب فيبطش بفلول خصومه ويترك في نفوس الناجين منهم ونفوس أقاربهم جراحاً يصعب اندمالها في مستقبل الأيام. والهزيمة لم تدخل إلى قلبه اليأس وتحطم معنويته وتفلّ من عزيمته. وكما كان يتوّج انتصاره العسكري، في غالب الأحيان، بالعفو فيكسب من كانوا ضده كان يستشف من هزيمته درساً يساعده على تحسين خططه مستقبلاً. وكان من قوة إرادته مثابرته للوصول إلى هدفه المنشود. فلم يكن يفتر عن العمل لتحقيق ذلك الهدف حتى يصل إليه ما لم تتضح له في أثناء عمله أن غيره أفضل منه؛ فحينئذ تتضح مرونته المعهودة وحنكته الفائقة، ويعدل إلى الأمر الأفضل له.

٦ ـ المشورة :ـ

وكان من أدلة رجاحة عقل الملك عبد العزيز أنه كان دائم المشورة تمشياً، فيما يبدو مع الحكمة القائلة :ـ

" ما خاب من استشار ". ومع قول الشاعر :ـ

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ∴ فإن الخوافي قوة للقوادم

ثم إن استشارة ذوي المشورة مما يجلب مودتهم للملك ويعمّق ثقتهم بزعامته لأنها تشعرهم بأهميتهم في تسيير عجلة التقدم.

وكان يستشير ذوي الخبرة في المجالات المختلفة؛ فرادى أو مجتمعين، ثم يتأمل آراءهم بفطنة لمّاحة، ويقرر ما يراه مناسباً. وكان يقبل المشورة وإن لم يطلبها إذا رأى أنها صائبة. من ذلك قبوله رأي محمد بن هندي، زعيم برقا، في الانتقال إلى البكيرية ليحول دون استيلاء عبد العزيز بن رشيد عليها، ورأيه في محاولة التوصل إلى هدنة مع ذلك الأمير حين طال مناخ الرس ـ الشنانة.

٧ ـ سرّية الحركة والتمويه على الخصوم :ـ

وهذان الأمران من الأمور المتّبعة قديماً وحديثاً داخل الجزيرة العربية وخارجها. وكانا مما اشتهر به الإمام سعود بن عبد العزيز. لكن الملك عبد العزيز بلغ في إتقانهما درجة كبيرة. فكثيراً ما كان ينطلق غازياً إلى جهة الشمال ـ مثلاً ـ ويفهم الآخرون أنه قاصد إلى بلدة أو قبيلة في تلك الجهة. لكنه سرعان ما يغيّر اتجاهه وينقض على بلدة أو قبيلة في جهة أخرى قد تكون عكس الجهة التي كان متجهاً إليها في بداية سيره. وبذلك يتوفر له عنصر المفاجأة ويسهل عليه الانتصار. ومن الأساليب التي اتبعها في هذا المجال أنه كان يعدّ، أحياناً، جيشاً ضخماً، فيظن من رآه أنه قاصد إلى خصم قويّ. لكنه يهجم على خصم ضعيف فيضربه ضربة تترك صداها في نفوس الأقوياء. وكان يعدّ، أحياناً جيشا قليل العدد، فيظن من رآه أنه هاجم على خصم ضعيف. لكنه سرعان ما يباغت خصماً قوياً، فينال منه ما ينال.

وبالإضافة إلى سرية حركة الملك عبد العزيز وتمويهه على خصومه حذراً كل الحذر من أولئك الخصوم. وقد تجلّى حذره في مظهرين : أحدهما رصد حركات خصومه، وثانيهما أخذ الحيطة والتأهب لهجماتهم المحتملة. ومن ذلك أنه شرع فور دخوله الرياض في إقامة أسوارها تحسباً لأي هجوم قد يقوم به ابن رشيد عليها. ومن ذلك،

أيضاً، أنه لم يبدأ بمهاجمة المناطق الواقعة شمال الرياض، بعد تثبيت مركزه في هذه المدينة قبل أن يؤمن ظهره، بل اتجه إلى المناطق الواقعة جنوبها، وهي المناطق البعيدة نسبياً عن مركز إمارة آل رشيد ـ جبل شمّر.

٨ ـ وعيه للتاريخ :ـ

كان الملك عبدالعزيز حريصاً كل الحرص على معرفة التاريخ والاستفادة من عبره. ولقد ركّز بشكل خاص على دراسة تاريخ أمته ووطنه، والتأمل فيه، حتى وعى أسباب نجاح أسلافه من آل سعود وأسباب فشلهم. لقد أدرك أن من أسباب نجاح أولئك الأسلاف في تكوين دولة مترامية الأطراف ترفرف عليها أعلام الأمن مناصرتهم للعقيدة الصافية وتطبيقهم للشريعة السمحة. ومن هنا كان تمسكه بتلك العقيدة، وتصميمه على تطبيق هذه الشريعة من الأمور التي لا محيد عنها.

ولقد أدرك، أيضاً، أن العمود الفقري لقوة أولئك الأسلاف العسكري كان الحاضرة من السكان، وأن القبائل الرحّل إن وقفت بجانب السعوديين في أوقات انتصاراتهم فإن غالبيتها لم تلبث أن غيّرت ولاءها بسرعة بمجرد ظهور بوادر ضعفهم. وأدرك من ناحية أخرى أن قادة آل سعود الأوائل لم يولوا أوضاع البادية ما كانت تستحقه من اهتمام. صحيح أنهم أرسلوا، أحياناً، إلى مضاربها وعاظاً يرشدونهم إلى دين الله القيّم. لكن جهودهم في هذا المجال لم تكن عامة، ولم تكن بالقدر الكافي. بل إن تجربة الملك عبد العزيز الخاصة التي مرّ بها في السنوات العشر الأولى من مسيرته لتوحيد البلاد زادت اقتناعه بأن البدو الرحّل تصعب الحيولة بينهم وبين أمور تعوّدوا عليها منذ مئات السنين؛ كتبادل الغزوات ومهاجمة القوافل، وأنه لا يمكن الاعتماد عليهم في المعارك كما يعتمد على الحاضرة. وهكذا وافته فكرته الرائدة الذكية لتوطين البدو في مستقرات خاصة، وبث الروح الدينية في نفوسهم. وبذلك التوطين المبني على أساس ديني قضى على اعتداءات بعضهم على بعض واعتداءاتهم على الآخرين بدرجة كبيرة، كما كوّن منهم وحدات عسكرية تستميت في سبيل الهدف الذي يطمح إليه.

وكانت جهود الإخوان بين سنتي ١٣٣٥ و١٣٤٤هـ في مسيرة توحيد البلاد أكبر دليل على صواب رأيه ونجاحه.

ولقد أدرك الملك عبد العزيز من تأمله لتاريخ أسلافه أن الانتصار العسكري في كثير من المعارك ليس كافياً وحده لتحقيق نجاح سياسي مستمر، وأن تقدير كل إمكانات الخصوم، ومراعاة الظروف، والتعامل مع كل خصم وظرف وفق ما يناسبه ادعى إلى الفوز النهائي. وادرك أن من أسلافه من ذهب بعيداً في شدته على خصومه المحليين، وفي تحدّيه لخصومه غير المحليين، وأن تلك الشدة وذلك التحدّي كانا من أسباب القضاء المؤقت على الحكم السعودي. ومن هنا كان الرفق بالخصوم المحليين هو الصفة الغالبة في تعامله معهم، وكان تقربه إلى بريطانيا، القوة الكبرى المحيطة به حينذاك، سياسته المتبّعة؛ خاصة إذا كان ذلك لا يعيق خططه التي رسمها لتوحيد البلاد واستقلالها الوطني على المدى البعيد.

٩ ـ حسن اختياره للرجال :ـ

كان الملك عبد العزيز من أمهر القادة في اختيار الرجال الذين يعملون معه. ومن غير الصحيح أن يقال بأن جميع أولئك الرجال كانوا في مستوى المسؤولية التي ألقيت على كواهلهم. لكن أكثرهم كانوا كذلك في ظل الظروف التي تولوا خلالها تلك المسؤولية.

والذين عملوا مع الملك عبد العزيز كثيرون؛ منهم المواطنون أصلاً، ومنهم من وفدوا إلى البلاد هرباً من بطش المستعمرين خارجها. ومن رجال ذلك الملك من كانت تصرفاتم في الظروف الحرجة مثار الإعجاب. ومن هذه التصرفات ما قام به وزير المالية عبد الله بن سليمان قبيل معركة السبلة. كان الملك في أشد الحاجة إلى المال لتوزيعه على أتباعه؛ وبخاصة المتحضرون الجدد. فطلب منه أن يمدّه بما لديه من نقود. لكن صندوق الوزير لم يكن فيه ما يكفي حاجة الملك. فماذا عمل؟ اشترى من أهل القصيم جميع بضائعهم التي كانوا قد وصلوا بها إلى مكة بمكسب ٤٠٪ بشرط ألاّ يستلموا أثمانها إلا بعد ستة شهور. ثم وجّه البضائع إلى السوق، وباعها فوراً بأقل كثيراً من قيمتها التي اشتراها بها؛ لأن ما كان يهمه حينذاك هو الحصول الفوري على دراهم. وهكذا لم يمض يومان

إلا والنقود في طريقها إلى الملك. الذي حلّ بها مشكلة لم تكن لتحلّ لولا ذلك التصرّف الذكي.

ومن ذلك التصرفات ما قام به شلهوب قبيل إحدى الغزوات. كان الملك في بريدة، ولم يكن معه من المال ما يستطيع به تجهيز غزوته. وكان قد استدان من تجار المنطقة الشيء الكثير. ولهذا كان من الصعب عليه سؤالهم إمداده بأموال أخرى. فضاق صدره جداً، قال له شلهوب : " ما يصير إلا خير " وبعد ساعة ذهب إلى الربدي، أحد تجار بريدة المشهورين، ومعه أكياس ثقيلة الوزن، وقال له : إن عبد العزيز ينوي القيام بغزوة لا يعلم نتائجها إلا الله، وإنه رأى أن يودع لديك هذه النقود. وقد كتب على كل جزء في داخلها اسم صاحبه، فإن قدّر الله ورجع من غزوته سالماً أخذها منك، ووزعها على أصحابها. وإن كان الأمر خلاف ذلك فالمرجو منك أن تفتحها وتوزعها على من هي له، واطمأن الربدي إلى ما قال شلهوب، الذي قال له بعد يوم: إن الملك محتاج إلى ألفي ريال، وإنه لا يريد أن يأخذ الاكياس التي عندك ويفتحها بعد أن ختمها.

فأبدى الربدي استعداده لإقراضه؛ خاصة أن أكياس نقوده أمانة لديه، ودفع إليه المبلغ المذكور. وبذلك حلّ مشكلة تجهيز الغزوة. وانتهت تلك الغزوة بالحصول على غنائم كثيرة باعها شلهوب في أسواق القصيم. ثم دفع إلى الربدي ما استلف منه.

وطلب منه هذا الأخير أن يأخذ ما أودعه لديه من أكياس النقود. فقال له شلهوب بابتسامة لطيفة : هي لك. فما ذا كانت تلك النقود الشلهوبية ؟ مجموعة من أربطة الخيل وأرسان الإبل وأوتاد الخيام؛ وضعها في داخل تلك الأكياس بطريقة تخفى على لامسها ما في داخلها؛ مطمئنا صديقه بأن مدينه ملي. وبتلك الحيلة الذكية حقق رجل عبد العزيز المخلص مصلحته المرجوة.

١٠ ـ عمق معرفته بقومه :ـ

ومعرفة الملك عبد العزيز بأحوال قومه؛ حاضرة وبادية، من الأمور التي أثارت انتباه كثير من الناس؛ كتّابا ورواة قصص. كان يعرف زعاماتهم والأسس التي قامت عليها تلك الزعامات. وكان يعرف أسر الحاضرة البارزة كما يعرف فروع القبائل

المتعددة. ولم تكسبه تلك المعرفة الدقيقة إعجاب الجميع بشخصيته فقط، بل أكسبته مهارة التعامل مع كل فرد وفريق وفق ما يناسبه من تعامل. ولقد أدرك أن الجميع كانوا لا يطيقون وجود حاجز بين الحاكم والمحكوم. ولذلك جعل بابه مفتوحاً بينه وبين شعبه بدرجة كبيرة؛ فنال حبهم ورضاهم.

١١ ـ إتقان فنّ الإعلام :ـ

كان الإعلام مهما جداً في مرحلة توحيد البلاد؛ خاصة في المجال الحربي. ولقد برهن الملك عبد العزيز في عدة مواقف على أنه كان يجيد فنّ الإعلام إجادة فائقة. ولنأخذ مثلين من أمثلة فنون إعلامه. بعد أن ثبّت مركزه في الرياض، وقدم إليه أبوه من الكويت، ودخلت منطقة جنوبي نجد تحت حكمه، ظهر من هذه المدينة مشيعاً أن خلافاً وقع بينه وبين أبيه، وأنه اضطر إلى مفارقته. وكان يهدف بذلك إلى استدراج ابن رشيد ليلتقي به عسكرياً فوق أرض صلبة بالنسبة له. وصدق ابن رشيد الإشاعة، فقدم إلى المنطقة ليستفيد من ذلك الخلاف. لكنه أصيب بخيبة أمل حين اقترب من الرياض وعلم أن المراد من الإشاعة استدراجه. وتمّ للملك عبد العزيز ما أراده من إطلاق تلك الإشاعة. فتقابل مع ابن رشيد وانتصر عليه، وأصبح في نظر الجميع نداً له.

وحينما لقي هزيمة على أيدي العجمان، وقتل أخوه سعد، وجرح هو جرحاً بليغاً، ظهرت إشاعة بأنه قتل. فما ذا عمل؟ خطب فوراً امرأة، وطلب أن تزف إليه حالاً، وأن يروّج لذلك الزفاف بقدر المستطاع. ودخل بالمرأة وجراحه لا تزال بليغة. وبذلك تبين للناس أنه معافى، وقضى على إشاعة مقتله، وارتفعت معنويات أتباعه.

١٢ ـ الحظ :ـ

وكان سكان البلاد؛ حاضرة وبادية، يرون أن الحظ من الصفات التي لابد من توافرها في القائد الذي يحاربون تحت لوائه. وكلما كان حظه أوفر كان اندفاعهم إلى الغزو معه أعظم. والحظ ذو مظهرين؛ أحدهما أن يوفق القائد في تخطيطه وتحركاته ونتائج أعماله. وثانيهما أن تعمى بصيرة خصمه فيقع في مشكلات لا يوفّق إلى حلّها. والأمثلة على حظ الملك عبد العزيز كثيرة؛ وهو أمر كثيراً ما ردّده بنفسه ليدلّل به على أن

الله معه. ومن كان الله معه فهو الغالب حتما. والقول بأن الملك عبدالعزيز كان ذا حظ عظيم لا ينقص من عظمته أو يحطّ من شأنه. فما اتصف به صفات، وما رسمه من خطط ونفّذه من أعمال شواهد على عظمة شخصيته. ثم إن القائد إن لم يكن ذا حظ فإن نجاحه من المستحيل.

الظـــروف :ـ

تواجه القادة دائماً ظروف معيّنة وهم يحاولون أن يصلوا إلى أهدافهم التي خططوا لها. ومن هذه الظروف ما يساعد القائد في مسيرته لبلوغ هدفه. لكن منها ما يعرقل مساعيه ويضع العقبات في طريقه. وتتبين مقدرة القائد وكفاءته في تعامله مع الظروف المختلفة. فالقائد الكفء هو الذي يستطيع أن يستفيد من الظروف المساعدة إلى أبعد حد، ويتمكن من توظيفها التوظيف الممتاز لصالح الهدف الذي يسعى إليه. وهو الذي يستطيع أن يخفف من وطأة الظروف غير المساعدة بحيث يكون تأثيرها السلبي على مسيرته تأثيراً ضعيفاً جداً.

وكان الملك عبد العزيز قائداً كفؤاً استطاع أن يستثمر الظروف المساعدة استثماراً جيداً، وتمكن من تخفيف وطأة الظروف غير المساعدة بطريقة تثير الإعجاب. ويقتصر الحديث هنا عن الظروف التي ساعدته في تحقيق ما حققه من نجاح. وأهمها ما يلـــي :ـ

١ ـ الإرث التاريخـــي:ـ

فالملك عبد العزيز من أسرة حكم اقامت في البلاد دولة لم تقم مثلها دولة في تاريخ الجزيرة منذ صدر الإسلام سعة والتزاماً بعقيدة التوحيد الصافية وتطبيقاً لشريعة الله، كما سبق أن ذكر. ولاشك أن أكثرية سكان المنطقة؛ خاصة الحاضرة منهم، قد أصبحوا يكنون مودة وتقديراً لهذه الأسرة بعد أن جنوا على أيدي قادتها الأوائل فوائد الوحدة وذاقوا حلاوة العقيدة وعدل الشريعة. ولذلك كانوا على استعداد للوقوف مع أي قائد منها ما دام يتصف بالصفات القيادية المطلوبة. ومما يوضّح هذه المسألة أن

قادة الدولة السعودية الأولى لم يستطيعوا أن يوحدوا منطقة نجد إلا بعد أربعين سنة من الكفاح المستمر. ذلك أن السكان لم يجرّبوا الفوائد المترتبة على الدخول في ظل الدولة. لكن موقف هؤلاء السكان اختلف اختلافاً عظيماً بعد أن جرّبوا تلك الفوائد. فمن الملاحظ أنه لم يمض عامان على دخول الإمام تركي بن عبد الله الرياض وإجلائه بقية جيش محمد علي من المنطقة إلا وقد دخلت جميع البلدان النجدية في ظل دولته بطريقة سلمية إلا ما ندر.

وحينما بدأ الملك عبد العزيز مسيرته لتوحيد البلاد رأت فيه أغلبية السكان القائد المنتظر لصفاته الشخصية من جهة ولانتمائه إلى الأسرة السعودية التي يكنّون لها المودة من جهة أخرى. على أن البلدان النجدية كانت عند بدء نشاطه تحت إمارة آل رشيد. وهذا مما أعاق انضمام بعضها إليه نوعاً ما وإن لم يحل دونه في نهاية الأمر.

٢ ـ أن حكم آل رشيد لأكثر البلدان النجدية لم تكن له جذوره العميقة؛ إذ لم يشمل كل نجد إلا قبل دخول الملك عبد العزيز الرياض بعشر سنوات. وكان الأمير عبد العزيز بن متعب، بالذات، غير مؤهل لمواجهة المرحلة الجديدة. فلم يكن السياسي المحنّك الذي يحاول أن يكسب الناس بالحكمة، وإنما كان فارساً مغواراً أراد أن يحكم السكان بالقوة. ومما ينسب إليه أنه حين توفى عمه محمد بن عبدالله أرسل إلى زعماء القبائل يقول لهم: "محمد مات وأنا وليت، ولا عندي لكم إلا الحافر وصنع الكافر" ـ أي الخيل ـ والسلاح ـ. ولعلّ مما يوضّح اعتماده على قوته وغروره بها أنه حين علم بدخول الملك عبد العزيز الرياض استخف به وقال: " أرنب محجورة ".

وبالإضافة إلى ما تقدم كان من بين أمراء نجد من كانت لهم مشكلات خاصة مع آل رشيد. ومن هؤلاء أمراء البلدتين الكبيرتين في القصيم؛ بريدة وعنيزة، الذين كانوا في منفاهم بالكويت منذ معركة المليداء المشهورة تقريباً حتى دخول الملك عبد العزيز الرياض. وكان سكان هاتين البلدتين موالين لأمرائهم التقليديين ناقمين على آل رشيد الذين قتلوا الكثيرين منهم في المعركة المذكورة. ومما يوضّح تعاطف غالبية النجديين مع

آل سعود ورغبتهم في التخلّص من حكم ابن رشيد أن الملك عبد العزيز لم يجد صعوبة في إدخال منطقة جنوبي نجد والمناطق الواقعة بين الرياض والقصيم تحت حكمه، وأنه وجد تعاوناً كبيراً من أهل القصيم حينما وصل إليها بأتباعه ومعه أمراء البلدتين الكبيرتين القادمون من الكويت. ولإدراك ابن رشيد لموالاة أغلبية النجديين للملك عبد العزيز لم يجد أمامه إلا الاستنجاد بالدولة العثمانية التي أمدته بالسلاح والرجال.

وإمدادها لابن رشيد ـ وإن بدا في صالحه من الناحية المادية ـ إلا أنه أعطى السكان المحليين الدليل الواضح على أن مستقبل حكمه في نجد آخذ في الضعف؛ بل إن حكمه مقضي عليه عاجلاً أو آجلاً. ذلك أن بقاءه بات مرهوناً بوجود قوة خارجية. ها هو العوني يقول :

يَـوْمْ إِنْ ابُـو مِتْعِبْ نَحَـاهُ ابُـو تِـرْكِي ∴ عَنْ نَجْـد واهْلَـهْ خَطْ الاتْـراكْ مـرْكِي

عـاف العـرب بِسْمُـوتِهِم صـارْ تـركي ∴ حِتّـى بَـعَـدْ بِلْسَـانِـهـم صـار بَيْطـار

يَبـي بـهُـم حُكْـم وُهُـمْ حَـاكْمِينُـه ∴ مـا اعْتَـاظْ مِنْ قَبْلَـه حِـدٍ نـافْعِينـه؟

فَضْـوا خُـزُونُـه والـدِّبَشْ والظّعِينَـه ∴ مـا بَيْنُـوهـا لَـهْ إلى وَقْـتْ الأثْمـار

ومعروف أن النجديين لم يكونوا يودون الأتراك بعد أن عانوا منهم في الماضي ما عانوا.

ومن الملاحظ أنه لم تمض ثلاث سنوات على دخول الملك عبد العزيز الرياض إلا وقد دخلت نجد كلها تحت حكمه باستثناء جبل شمّر مركز إمارة آل رشيد. وظل النجديون يبذلون دماءهم وأموالهم في سبيل الهدف العام الذي أراده الملك عبد العزيز طيلة مسيرة توحيد البلاد.

وكان من أدلة عظم حظ الملك عبد العـزيز وتغـيّر الظروف لصـالحه أن الخـلافات الداخلية في جبل شمّر ذاته بدأت تعصف بإمارة آل رشيد بعد مقتل الأمير عبد العزيـز به متعب بقليل.

٣ ـ إذا كانت تلك هي الظروف الموافية في مرحلة توحيـد نجد فمـاذا عن عوامـل نجاح الملك عبد العزيز في الأحساء؟

المتتبع لسير الأحداث في الحكم السعودي في جميع مراحله يلاحظ أن نجـداً كانت دائمـاً البدايـة والمنطلق، ثم يبدأ امتـداد ذلك الحكم بمنطقـة الأحساء. وكـانت هـذه المنطقة حينما بدأ الملك عبدالعزيز مسيرته التوحيـدية تحت حكم الأتـراك العثمانيـين، لكن وجودهم العسكري فيها كان ضعيفاً. وكانت القبائل الـرحّل تعمـل ما تـريد ضـد سكان المدن والقرى خارج أسوارها. ولم يكن الأتراك قادرين عـلى اتخاذ أيـة خطوات تحدّ من أعمال تلك القبائل. ولذلك كان سكان المدن والقـرى يتطلعون إلى من يخلّصهم من الـوضـع السيىء الـذي كانـوا فيه. ومن هنـا بدأ بعض زعمـائهم يتصلون بـالملك عبدالعزيز، ويحثونه على القدوم لإنقاذهم، ويعاهدونه على الوقوف معه. ولم يبق أمامـه لتوحيد تلـك المنطقة مـع نجد إلا التغلب عـلى الجنود الأتـراك والقبائـل المستفيدة من الوضع السائد حينذاك وكان من المهـارة والذكـاء بحيث أبعد كبـرى تلك القبـائل عن المنطقة موضحاً لها أنه سيساعدها في مهاجمة قبيلة مختلفة معها في ذلك الـوقت. وبعد أن اطمأن إلى إبعاد القبيلة الكبرى عن مسرح عملياته المرتقبة انقض مسرعـاً، وفاجـأ الحامية التركية بدخوله الأحساء. فلم يكن لرجال تلك الحامية بد من الاستسلام للأمر الواقع.

٤ ـ عسـير وجـازان:

من المعلوم أن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب قد لقيت قبولاً عظيماً لـدى كثير من سكان هاتين المنطقتين اللتين كانتا جزءاً من الـدولة السعـودية الأولى. وقـد ظهرت آثار ذلك في المواقف البطولية التي وقفها سكان عسير، بصفة خاصة، أمام قوات محمد، علي التي جاءت إلى جزيرة العرب للقضاء على الحكم السعودي. وظلت الصلات الودية قائمة بـين زعماء هـذه المنطقة وبـين قادة آل سعـود. ولما انسحب الأتـراك منها بعـد

الحرب العالمية الأولى أصبح أميرها حسن بن عائض. لكن زعماء بعض القبائل الكبيرة اختلفوا معه. ولصلة أولئك الزعماء القديمة بآل سعود من ناحية، وما شاهدوه من نجاح الملك عبدالعزيز؛ خاصة بعد انتصار أتباعه الشهير في تُربة سنة ١٣٣٧هـ، رأوا أنه الزعيم المؤهل لحلّ المشكلات القائمة بينهم وبين أمير منطقتهم. فاتصلوا به، وطلبوا منه أن يساعدهم. فأرسل الملك عبدالعزيز إلى الأمير حسن وفداً للصلح بين الطرفين. لكن الحسن ردّ الوفد رداً غير موفق. وهذا مما دفع الملك إلى غزو عسير. وكان غزوه لها موفّقاً أدّى في نهاية الأمر إلى دخولها تحت حكمه.

أما جازان فكان زعماؤها في أثناء توحيد المملكة الأدارسة. وكان جد هذه الأسرة مغربياً صاحب طريقة صوفية، استقر في نهاية مطافه بصبيا سنة ١٢٤٦هـ. وأصبح لطريقته أتباع في المنطقة. ولكن وصول هذه الأسرة إلى الحكم تمّ على يد حفيده الداهية محمد بن علي، الذي ولد عام ١٢٩٣هـ؛ وهو العام الذي صح أن الملك عبدالعزيز ولد فيه. وتحالف محمد مع الإيطاليين ضد الأتراك حتى أصبح حاكماً للبلاد. وبعد ذلك وجد نفسه بين جارين يطمعان في بلاده: إمام اليمن وملك الحجاز. فعقد معاهدة مع الملك عبدالعزيز أملاً في الحصول على مساعدته. وبعد وفاته حدث خلاف أسري بين ابنه علي وبين أخيه الحسن بن علي. وأصبح الحسن هو الحاكم. لكن الظروف المحيطة به داخلياً وخارجياً جعلته يطلب حماية الملك عبدالعزيز سنة ١٣٤٥هـ. ثم أدّى عجزه عن إدارة شؤون البلاد إلى إسناد إدارتها إلى ذلك الملك. وهكذا أصبحت جزءاً من المملكة.

٥ ـ الحجاز:

والظروف التي أدّت إلى دخول الحجاز تحت حكم الملك عبدالعزيز مشابهة، بدرجة كبيرة، لتلك الظروف التي أدت إلى دخولها تحت حكم الدولة السعودية الأولى. لم يبدأ الملك عبدالعزيز ملك الحجاز بحرب؛ وإنما بدأ هذا الأخير بغزو نجد تماماً كما حدث لأسلاف هذا وذاك؛ إذ كان الشريف غالب هو الذي بدأ بمحاربة الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود. ثم وقع الخلاف بين الملك عبدالعزيز وبين الملك الحسين بن علي حول واحتي تربة والخرمة، اللتين يكنّ أكثر سكانهما وداً لآل سعود. واختلف أمير الخرمة،

الشريف خالد بن لؤي، مع ملك الحجاز، فانضم إلى الملك عبدالعزيز تماماً كما اختلف عثمان المضايفي، قريب الشريف غالب، مع ذلك الشريف وانضم إلى الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود. وكما كان انضمام المضايفي إلى الدولة السعودية الأولى كسباً لها كان انضمام ابن لؤي إلى الملك عبدالعزيز كسباً له. وبقدر ما كان إسهام المضايفى في إدخال الحجاز تحت حكم الدولة السعودية الأولى كان إسهام ابن لوي في إدخالها تحت حكم الملك عبدالعزيز. وكما منع الأشراف الأوائل السعوديين من أداء الحج منع الحسين أتباع عبدالعزيز من أداء تلك الفريضة. وكان منعه لهم من أكبر أخطائه السياسية؛ إذ زاد من حماس أولئك الأتباع؛ خاصة الإخوان، ضده، فاندفعوا في قتالهم له اندفاعاً عظيماً.

ومن العوامل التي ساعدت الملك عبدالعزيز على إدخال الحجاز تحت حكمه أنها أصبحت محاطة من جهتيها الشرقية والجنوبية بمناطق سعودية. ومنها أن الحجاز لم تعد خاضعة للاتراك بعد أن أبعدهم عنها الحسين بن علي بالتعاون مع بريطانيا، ولم يعد ملكها يلقى من البريطانيين العون الذي كان يلقاه منهم بعد أن وصلوا إلى مآربهم التي أعانوه في السابق من أجل الوصول إليها. وتوافرت الظروف الداخلية والخارجية المناسبة ليقوم الملك عبدالعزيز بتوحيد الحجاز مع بقية مناطق المملكة، ففعل.

وهكذا استطاع الملك عبدالعزيز - بتوفيق الله ثم بما كان له من صفات قيادية، وما واكب تحركه من ظروف - توحيد البلاد.

●●●

(إنني أدعو المسلمين جميعاً إلى عبادة الله وحده والرجوع للعمل بما كان عليه السلف الصالح لأنه لا نجاة للمسلمين إلا بهذا).

الملك عبدالعزيز